مخيمات البؤس ـ على اجتراح الفعل، وعلى إعادة تشكيل رؤيتها للعالم، بما يتواءم مع تفجير قدراتها على الفعل المؤدي الى خلاص حقيقي(١٤٣). وليس بلا دلالة أيضاً أن الرواية، في ما يتعلق بالحجاب، لم تضع الحجاب القديم في دائرة تحول دلالي، فقط، بل وضعته في سياق استبدالي، سياق نفي وتأكيد؛ الغاء واثبات، يكون معه، حضور الرصاصة ـ العقد، أو الحجاب الجديد على حدّ تعبير أم سعد، نفياً قاطعاً للحجاب القديم، إذ يصير الكفاح المسلح بالوعي وبالسلاح، بديلاً يشطب زمناً، ويجيء بزمن آخر؛ بشطب زمن الوعي الغائب والانتظار ـ العاجز، ويجيء بزمن الوعي القائم، والمتحول بحثاً عن أقصى حدود تجلياته الممكنة؛ عن وعيه الممكن.

غير ان هذا الوعي، كما تقدمه ام سعد: رواية وشخصية ملحمية، لا يتطور في اتجاه واحد، فهو في تطوره باتجاه العثور على طرائق مواجهة العدو الاسرائيلي على المستوى الوطني، يتطور، أيضاً، في اتجاه مواجهة القوى الاجتماعية المستغلة، على المستوى الطبقي، ومن خلال تفاعل كلا المستويين تتشكل رؤية أم سعد للعالم، وهي الرؤية التي يستلهمها، ويشارك في صوغها: الراوي، المثقف الثوري ذو الاصول البرجوازية.

ان بيت أم سعد الذي يكثّف مغزى تحول الوعي في مواجهة العدو الاسرائيلي (العدو القومي) من خلال القاء الحجاب القديم؛ الوعي القديم، بين الاشياء المهملة واستبدال الرصاصة ـ العقد؛ الحجاب الجديد، به، هو نفسه الذي يكثّف مغزى تحول الوعي في مواجهة القوى المستغلة (والعدو الطبقي) وذلك من خلال علاقة التضاد القائمة، منذ أول لقاء مع بيت أم سعد في النص، بين بيتها وبيوت الآخرين. ولئن جاءت علاقة التضاد هذه على نحو إشاري فحسب، ومن خلال جملة اعتراضية لها دلالتها على المستوى النصيّ، كما لاحظنا في اللوحة الخامسة، فإن هذه الجملة تصير نواة للوحة كاملة تنهض بتعميق علاقة التضاد، وتوليد فاعلية التباين والمغايرة التي تحدث التأثير المنبة، عبر احداثها لما يمكن تسميته بـ «صدمة التعرف»(١٤٤)، حيث في هذه اللوحة «الناطور وليرتان فقط». وهي اللوحة السابعة، نذهب مع أم سعد والراوي والمرأة اللبنانية الجنوبية للتعرف على بعض المواصفات الهندسية لبيوت الآخرين، وعلى ما يجري في هذه البيوت من استغلال للفقراء، فلسطينيين ولبنانيين، في آن معاً.

ولا تنبثق الاشارات التي تحمل المواصفات الهندسية لبيوت الآخرين إلا من خلال تكثيف حالة الاستغلال التي تتعرض لها أم سعد والمرأة اللبنانية من قبل صاحب احدى عمارات وسط المدينة، وبمساهمة «ناطور البناية» الفقير أيضاً. فإذ تخبر ام سعد الراوي عن الناطور الذي يطاردها للعودة الى العمل، وعن الاحداث التي وقعت قبل التحاقها بالعمل، وعن دوافعها الحقيقية لرفضها الاستمرار فيه، فإنها تكشف حالة الاستغلال التي تعرضت لها، هي والمرأة اللبنانية، وتقدم في هذا السياق شيئاً من المواصفات الهندسية لعمارات وسط المدينة ـ بيوت الآخرين ـ وهي المواصفات التي تعمق حدة التضاد بين بيت أم سعد ـ النموذج ـ وعمارة وسط المدينة ـ النموذج ـ فتتولد فاعلية التباين من خلال ادراكنا للتضاد عبر تعرفنا على بيوت الآخرين.

تقول أم سعد: «إنه ناطور البناية، وقد أرسله صاحبها، ومنذ جمعة وهو يتعقبني، وأنا يا ابن العم، لا أريد العمل هناك، ولا أريد ان أرى وجهه، وجه القرد، صاحب البناية تلك... أتعرف؟ جاءني الناطور ذات يوم وقال لي انه وجد لي عملاً في البناية التي يعمل فيها، شطف الدرج والمدخل من فوق، من الطابق السابع أو الثامن، لست أدري، الى الطريق. وقال لي: تأخذين خمس ليرات كل مرة،